الأنباء
الاحد 28 يوليو 2013

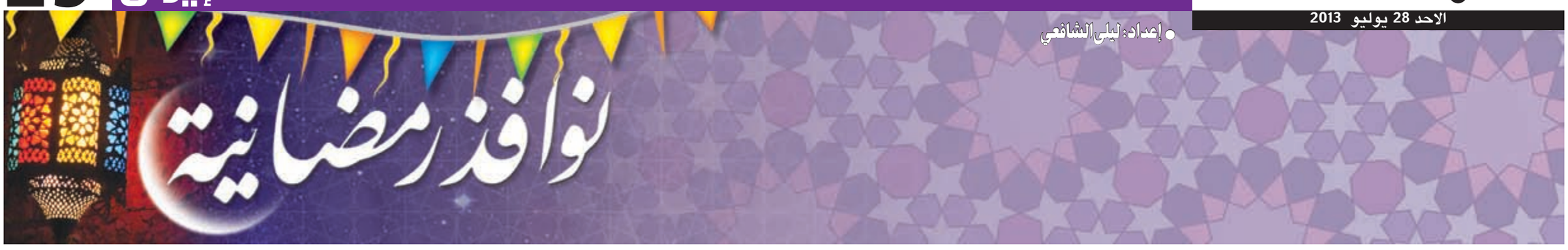

● إعداد: ليلى الشافعي

عودة إلى الله

وسقط بعد الالتزام

كان أحد أفراد الجيش، قد دخل هذا العالم المظلم، وهو في سن مبكرة، وكان أحد الأسباب الرئيسية، طلاق أمه من أبيه، ومرض أبيه الذي ألزمه الفراش سنين طويلة، فأصبح من غير مراقبة من أحد إلا الله، مما هيأ له جو الانحراف خاصة انه كان يسكن في منطقة موبوءة بالمخدرات وموزعيها.

بدأ بالتدخين في سن مبكرة جدا، وتعرف على أصحاب السوء في منطقته، وعلموه، وكان مهيئا لكل فنون الفساد، من نساء، وخمر، ومعاكسات، ثم المخدرات، وتعمق فيها حتى أدمنها، مما اضطره لدخول المستشفى بعد ان تعرض للموت بسببها.

تعرف عليه أحد الاخوة في جمعية بشائر الخير في المستشفى، وتأثر ذلك الشاب بأخلاق ذلك الداعية، وارتبط بنا ارتباطا قويا، خاصة عندما كنا في بدايات العمل، في السنوات الأولى من تجربتنا. أطلق لحيته، وتغيرت عباراته، وانغمس في عملنا في الجمعية انغماسا جعله كأنه أحد مكوناتها الأساسية، لا يترك نشاطا ولا برنامجا ولا رحلة إلا كان أول المبادرين لها، بل انه كان يأتينا أثناء الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان مباشرة من معسكره، وبلباسه العسكري الى المسجد دون الذهاب الى بيته ناويا الاعتكاف، وكذا كانت همته في الحج والعمرة، فقد رافقنا ثلاث سنوات متتاليات حجا وعمرة.

في احدى تلك الزيارات جلس معي على عتبة أحد مطاعم الفلافل أمام الحرم، يعرض عليّ قصته من الضلال الى الهداية، ووجهه يشرق نورا وهداية واطمئنانا، وهو يضحك على الأيام التي مضت، ويحمد الله على الهداية.

مضت الأيام، وهو يزداد التزاما يوما بعد يوم.

وفاة والده

جاءنا خبر وفاة والده، وانشغل بوفاته كثيرا، حيث كان لأبيه بعض الحلال في المملكة العربية السعودية، فذهب هناك يتابع ذلك الحلال، وكان كثير التنقل بين السعودية والكويت، واستغرق ذلك ما يزيد على الثلاثة اشهر انقطع خلالها عنا تماما.

اتصلت زوجته بنا لتخبرنا برجوعه للتدخين، فانزعجنا لذلك الخبر، ووضعنا أيدينا على قلوبنا، حيث يدل ذلك عندنا على بداية الانتكاسة، وبدأ يتردى حاله، ويتهرب عنا كلما حاولنا الاتصال به حيث كان العذر جاهزا - أنا مشغول لجمع حلال والدي، ثم ما لبث ان جاءتنا الأخبار بأنه قد عاد الى المخدرات، وبدأنا بتكثيف الاتصال به دونما فائدة.

قدم أثناء الانتكاسة

وفي ليلة من الليالي، وإذا به يدخل عليّ وأنا في مكتبي في جمعية بشائر الخير في مقرنا القديم في منطقة الروضة، وهو شاحب الوجه، منطفئ النور، ولم تبد عليه تلك الإشراقة الإيمانية التي كنا نراها في وجهه.

وتقدم الي وعانقني، وقال لي بصوت متهدج: سامحني يا شيخ.. هل تقبلون عودتي؟ قلت له: كيف لا نقبلك، فأنت الذي تركتنا وباب التوبة مفتوح، وقلوبنا دائما مفتوحة قبل أبوابنا.. هذا ما كنت أقوله لكل تائب، فوعدني بالتوبة وبالعودة للبشائر، ثم غادر المكتب وانقطعت أخباره ثانية.

بداية النهاية

كنت فرحا بعودته، وندمه، وزيارته لنا وكنت متأملا ان يعود لرشده، ولسابق عهده معنا، ولكن للأسف، فقد انقطعت أخباره ثانية عنا.

وباءت محاولاتنا للاتصال به بالفشل.. وفوجئنا بخبر منشور في الصحافة اليومية، العثور على جثة شاب في الثلاثينيات متعفنة في سيارة في بر الصليبية.

لم نكن نعلم من ذلك الشاب.. ولكن لم تلبث عقارب الساعة بالتحرك كثيرا حتى جاءتنا الأخبار بأنه كان هو المقصود.

نهاية مبكرة

عندما علم أعضاء البشائر بالخبر، نزل عليهم ذلك الخبر نزول الصاعقة، وهزهم هزا عميقا، وانحدرت الدموع من عيونهم حزنا عليه، فقد كانت موتته هي الأولى ضمن الملتزمين في البشائر، وعادة فإن عدد المنتكسين لدينا متدن كثيرا مقارنة بالنسبة العالمية، أما الذين يموتون بجرعة زائدة من الملتزمين فكانت موتته هي الأولى بتاريخنا لذلك كان وقعها كبيرا على أعضاء البشائر.

الرجال مواقف

قتيبة بن مسلم.. عاش مجاهداً ومات مظلوماً

هذا البطل أبى إلا ان ترفع راية التوحيد على سمرقند وبخاري ونيسابور وغيرها من هذه البلاد النائية رغم بعد المسافة ووعورة الطرق، بل ان طموحه حدا به الى التطلع لغزو الصين ورفع راية الإسلام تحت سمائها.

وكان سيتحقق له ذلك لولا ما ألم به في أخريات عمره من ظروف سياسية قاسية، فتعرض لمحنة فادحة راح ضحيتها ولم يتحقق له أمله العظيم. هذا البطل الذي فتح هذه البلدان التي خرج منها فيما بعد رجال من ألمع علماء المسلمين فكرا واجتهادا وتصوفا هو قتيبة بن مسلم الباهلي، وباهلة التي ينتسب اليها هذا القائد الفذ قبيلة عربية مغمورة لم يكن لها ذكر، فلم يبرز منها من تفخر به بين القبائل الأخرى، إلا هذا الفارس ووالده مسلم بن عمرو الذي كان شجاعا مقداما، وما اكثر ما هجا الشعراء في الجاهلية هذه القبيلة باعتبارها لم تخرج أبطالا في حومة القتال، أو شعراء ذاع صيتهم بين الناس.

وقد شب قتيبة بين قبيلته ورأى والده يعشق الفروسية، ويجيد ركوب الخيل، فقلد الصبي والده، ليوم يحقق فيه للإسلام انتصارات خالدة على مر الزمان، يمتد تأثيرها أجيالا وأجيالا، ويشب الفتى جريئا مقداما جسورا محبا لخوض أعتى المعارك.

وهذه الشجاعة قربته من الحجاج بن يوسف الثقفي، فقد هال هذا الشاب ان يرى فرق الخوارج تؤرق الناس، ويحاولون فرض أفكارهم على المجتمع الإسلامي كله، ورأى قتيبة في حركتهم إعاقة للفتح الإسلامي، وتفريقا لكلمة الإسلام، ومن هنا حث الحجاج بن يوسف الثقفي على التصدي لهم والتخلص منهم، وكان قائدهم «شبيب جريئا للغاية ولكن الحجاج استطاع انزال الهزيمة بهم، وفي الوقت نفسه لفتت أنظاره شجاعة قتيبة بن مسلم وحرصه على الموت واستبساله في المواجهة حتى رجحت المعركة لمصلحة الحجاج، وقرر ان يكون قتيبة من المقربين اليه، يدخره للأيام العصيبة.

والي خراسان

دانت للبطل الفرصة عندما أوعز الحجاج الى الخليفة عبدالله بن مروان بأن يولي إمارة خراسان قتيبة بن مسلم بدلا من يزيد بن المهلب، وهناك اتبع قتيبة سياسة جديدة تختلف عن سياسة سلفه الذي كان يعتمد كلية على العرب دون الفرس، مما أوغر صدور الفرس الذين يرون ان يزيد في تفرقته بين الفرس والعرب يبتعد عن روح الإسلام، فليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى، كما قال رسول الله ﷺ. ومن هنا فقد استقبلوا قتيبة عندما علموا منه نية الاستعانة بهم في امور الحكم والحرب استقبالا حسنا، ولم يضع قتيبة فرصة، ولا يسمح لنفسه بأن يضيع وقتا، فأمله ان يمتد الإسلام ويشمل أراضي جديدة لاتزال تعيش تحت وثنية وضلال الشرك.. فيضم ارمينية وبكستان وقد تجمع ملوك ورؤساء هذه البلاد لضرب قوات المسلمين، ولكن قتيبة قاوم مقاومة منقطعة النظير، ثم عبر النهر الذي كانوا يقولون انه يحول دون تقدم المسلمين وواصل جهاده وحرص على ان يكون كالصقر لا يعنيه ما يحيط به من مكائد الأعداء ويتصدى لهم بشجاعة لا تعرف الخوف ولا التردد، موقنا ان النصر من عند الله.

وظل قتيبة يؤدي واجبه في ميدان القتال كمجاهد لا يبغي إلا وجه الله، وفي الوقت نفسه كان يوقن تماما ان الإسلام ليس مجرد انضمام الأرض لتستظل برايته، فبنى المساجد، واصطحب من العلماء من يشرح للناس الدين الجديد، وكان الناس في هذه الأماكن يعتقدون في الأوثان فيعبدونها من دون الله.

وبعضهم الآخر كان متأثرا بالفرس قبل دخولهم الإسلام فعبدوا النار، فكان عليه ان يثبت لهم ان هذه الأصنام وهذه النار لا تنفع ولا تضر، فكن يحرق بنفسه الأصنام ويحطمها أمام الناس، ويطفئ هذه النيران المقدسة وهو يقول لهم: ان كانت هذه آلهة فيمكنها ان تضرني مادمت قد دمرتها، ولم يحدث له أي ضرر، وهكذا بدأ الناس يدخلون في دين الله وبدأ الإسلام ينتشر وكان الدافع وراء انتشاره ما في الدين نفسه من قيم ترغم معتنقيه على التمسك بها، كما رأى الناس في هؤلاء المجاهدين قدوة حسنة في السلوك والأخلاق والتعامل.

نهاية مفجعة

ولا يستطيع أي مؤرخ ان ينسى ان وراء هذه الفتوحات الحجاج بن يوسف الثقفي نفسه، وما قدمه للفاتح العظيم من معونات ومدد ورسم خطط، إلا انه بوفاة الحجاج والخليفة الوليد بن عبدالملك شعر الفاتح الكبير انه لن يكون على وفاق مع الخليفة الجديد سليمان بن عبدالملك، رغم السنوات الثماني التي قضاها دون ان يهدأ له جفن او تغمض له عين وهو يقود جيوش الإسلام في ظروف مناخية وجغرافية بالغة القسوة والضراوة، وكان قتيبة يعد العدة لاقتحام أرض الصين نفسها ونشر الإسلام بين ربوعها، بل انه ارسل الى ملكها ينذره بأنه سيقتحم بلاده لو لم يدخل في الإسلام او يدفع الجزية وهو صاغر، وقد فعل القائد الشجاع ذلك مع علمه بمدى حقد الخليفة الجديد عليه، لأنه كان شديد الولاء للوليد بن عبدالملك، وتوقعه ان يبادر الى عزله.

وحدث ما توقعه قتيبة بن مسلم، فقد أمر الخليفة بعزله وهو في أوج انتصاراته، وعودته الى دمشق فخيمت سحابات من الحزن والأسى على البطل الجسور، وأخذ يدير الأمر ويدرس مستقبله والحزن يعتصر قلبه، فهو قاب قوسين أو أدنى من تحقيق انتصارات رائعة، وها هو قد وجد ان طموحاته انتهت وان الخليفة يستدعيه الى دمشق حيث لن يقدم له أكاليل الغار، ولن يقدم له شكره على جهاده في سبيل الإسلام، ولكنه سيزج به في أعماق السجون.

وقرر ان يقاوم هذا القرار الظالم مهما تكن العواقب، وليمت في ميدان جهاده بدل ان يموت حبيسا تحت قبو مظلم رطب وانتهت حياته وهو يقاوم من جاء يقدمه للخليفة، فقد أصابه سهم طائش أودى بحياته.

روائع القصص

الشيخ الكبير وابنتاه

هذا الرجل الصالح وابنتاه وردت قصتهم مع سيدنا موسى في سورة القصص، ويقال انه سيدنا شعيب النبي، ولكن هذا القول غير صحيح، لأن هناك فرقا كبيرا في الزمن بينهما، ولاسباب اخرى لا متسع لها هنا، ويقال ان اسمه شعيب، ولكن ليس النبي شعيب، وقصته هو وابنتيه مع موسى تبدأ بعدما خرج موسى من مصر متوجها الى مدين، وقد كان خروجه خوفا من فرعون وملئه ان يقتلوه بسبب قتله غير المتعمد للقبطي «أي المصري» ولم يكن يعرف الطريق التي توصله الى مدين، فقال: «عسى ربي أن يهديني سواء السبيل» فاستجاب الله له، فوفقه للوصول الى مدين، وجعله هاديا مهديا بما آتاه من النبوة، وعندما وصل مدين ورد ماءها، وكان عبارة عن بئر يذهب اليها رعاء الشاء ليسقوا منها أغنامهم، ولما ورد ماء مدين وجد عليه امة من الناس يسقون، ولفت نظره وجود امرأتين معهما اغنام، ولكنهما لا يحاولان سقيها من البئر، بل يحاولان ابعادها عن غنم الرجال، فأشفق عليهما وسألهما قائلا: «ما خطبكما» فقالتا: «لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير»، اي انهما لا تتزاحمان على الماء لسقي الغنم حتى لا تختلطا بالرجال، بل تنتظران حتى ينصرفوا ثم تسقيان، وأخبراه بأن الذي اخرجهما للعمل هو ان اباهما رجل كبير لا يقوى على هذا العمل الشابق، فسقي لهما ثم تركهما ترجعان لوالدهما، وقد قال عمر بن الخطاب: «ان موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، فلما فرغوا اعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها الا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان، قال: ما خطبكما؟ فحدثتاه فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق الا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم»، وبعد ان سقا لهما جلس تحت شجرة يستظل بها فسقي لهما ثم تولى الى الظل، وقال اخذ الجهد منه مبلغه، واستبد به الجوع والتعب، فاستغاث بالله قائلا: رب اني لما انزلت الى من خير فقير، وكانت المرأتان في هذه الفترة قد اخبرتا والديهما بما حدث من هذا الرجل الذي لا يعرفانه، فأمر احداهما ان تذهب اليه لتخبره انه يريده ليكافئه على معروفه، فجاءته احداهما تمشي على استحياء قالت ان ابي يدعوك ليجزيك اجر ما سقيت لنا، فذهب اليه وقص عليه ما كان من امره مع فرعون وقومه، فطمأنه انهم لن ينالوه بسوء، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين، وعرض عليه ان يزوجه احدى ابنتيه مقابل ان يعمل عنده في رعاء الشاء لمدة ثماني او عشر سنوات، فوفى الاجل الاكبر، ثم عاد بأهله الى مصر.

ذنوب كبيرة

اليمين الغموس

قال الله تعالى: (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) قال الواحدي: نزلت في رجلين اختصما إلى النبي ﷺ في ضيعة، فهم المدعى عليه أن يحلف فأنزل الله هذه الآية فنزل المدعي عن اليمين وأقر بحقه، وعن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله تعالى وهو عليه غضبان» فقال الاشعث: في والله نزلت، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدمته إلى النبي ﷺ فقال: «ألك بينة» قلت: لا، قال لليهودي: «احلف» قلت يا رسول الله إنه إذن يحلف فيذهب بمالي، فأنزل الله تعالى: (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) أي عرضا يسيرا من الدنيا وهو ما يحلفون عليه كاذبين (أولئك لا خلاق لهم في الآخرة) أي لا نصيب لهم في الآخرة (ولا يكلمهم الله) أي بكلام يسرهم (ولا ينظر إليهم) نظرا يسرهم يعني الرحمة (ولا يزكيهم) ولا يزيدهم خيرا ولا يثني عليهم.

وعن عبدالله بن مسعود قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حلف على مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان» قال عبدالله: ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ تصديقه من كتاب الله: (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) الى آخر الآية، اخرجاه في الصحيحين.

وعن أبي أمامة قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة» فقال رجل: وإن كان يسيرا يا رسول الله؟ قال: «وإن كان قضيبا من أراك» أخرجه مسلم في صحيحه، قال حفص بن ميسرة: ما أشد هذا الحديث، فقال أليس في كتاب الله تعالى: (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) الآية.

غزوات الرسول

غزوة بدر الكبرى
هزيمة قريش

خرج رسول الله ﷺ الى الناس فحرضهم، وقال: والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر، الا ادخله الله الجنة، فقال عمير بن الحمام وفي يده تمرات يأكلهن : بخ.. بخ (كلمة تقال في حالة الاعجاب)، فقال ﷺ: لم تبخبخ؟! (اي مم تتعجب)، فقال: رجاء ان اكون من اهلها، فأخذ تمرات يلوكهن ثم قال: والله ان بقيت حتى الوكهن، انها لحياة طويلة، فما بيني وبين ان ادخل الجنة الا ان يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمرات من يده واخذ سيفه فقاتل حتى قتل وهو ينشد:

ركضا الى الله بغير زاد
الا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد
وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبروالرشاد

وقال عوف بن الحارث: يا رسول الله، ما يضحك (اي يرضيه غاية الرضا) الرب من عبده؟ قال ﷺ: غمسه يده في العدو حاسرا (اي لا درع له)، فنزع عوف درعا كانت عليه فقذفها ثم اخذ سيفه فقاتل حتى قتل.

واقبل ابو جهل فقال: ما معشر الناس، لا يهولنكم قتل شيبة وعتبة والوليد فإنهم قد عجلوا، فواللات والعزى لا نرجع حتى نفرقهم بالجبال، ثم قال: اللهم اقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فأضه (اي اهلكه) الغداة، فكان هو المستفتح المبتدئ لنفسه.

وقاتل رسول الله ﷺ بنفسه قتالا شديدا، وكذلك ابو بكر الصديق رضي الله عنه، وقال علي رضي الله عنه: لقد رأينا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو اقربنا من العدو كنا اذا حمي البأس ولقينا القوم اتقينا برسول الله ﷺ، ثم ان رسول الله ﷺ اخذ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشا بها ثم قال: شاهت الوجوه، ثم نفحهم بها، وامر اصحابه فقال: شدوا، فكانت هزيمة قريش.

قال جبير بن مطعم: رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الاسود (اي كساء مخطط) مبثوث حتى امتلأ الوادي، فلم اشك انها الملائكة، فلم يكن الا هزيمة القوم، وقال علي رضي الله عنه: كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضا قد ارخوها على ظهورهم، الا جبريل فإنه كانت عليه عمامة صفراء.

جاء جبريل عليه السلام الى رسول الله ﷺ فقال: ما تعدون اهل بدر فيكم؟ فقال: من افضل المسلمين، فقال جبريل: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة فأهل بدر خير اهل الارض، وكذلك الملائكة الذين شهدوا بدرا خير اهل السماء.

● الشيخ سيد الرفاعي